# ليس كيف نردّ..؟
# ولكن كيف يجب أن نردّ؟

إنّ مواجهة إرهاب المُصْطلحات يتطلّب اليوم استراتيجية دقيقة تُتبنّى.. فأمريكا تتهم أفراداً ودولاً بممارسة الإرهاب وإيوائه.. وهي أكبر من يمارس الإرهاب في الكوكب برمّته..

وإسرائيل تتّهم كل مناوئ لسياستها ومشاريعها بمعاداة الساميّة..

غير أنّ الذي تنظر إليه أمريكا على أنّه إرهاب هو في الحقيقة دفاع عن النفس أو تحرير للأرض.. والذي تعتبره إسرائيل لا سامية إنّما هو مقتضى الصّراع المرير معها..

إنّ اللاإرهاب، واللاسامية عند واشنطن وتل أبيب معناهما التخلّي عن القضايا المصيرية..

إنّ سوريا إرهابيّة كونها تثير قضية الجولان وتدعّم «حزب الله».. وحزب الله إرهابي كونه يدافع عن أرضه في جنوب لبنان ومزارع شبعا، و«حماس» و«الجهاد» منظمات تمارس الإرهاب كونها تنادي بتحرير فلسطين، أو لنقل تنادي بالرجوع إلى خط الرابع من حزيران..

وأيّ شخصيّة أو منظمة أو دولة تواجه إسرائيل بالفكر وتفضح مشروعها أو وسائلها، أو تندّد بذلك، تعدّ معادية للسامية ومتآمرة مع الإرهاب.

فما العمـــل؟

هل ندافع عن أنفسنا بأنّنا لَسْنَا إرهابيين ولسنا معادين للسّاميّة؟

أم أننا يجب أن نسلّم ونعترف بأننا إرهابيون ومعادون للسّاميّة؟

يبدو لي أنّ مشكلتنا تكمن في الطرف الثالث الذي ليس «نحن» وليس «إسرائيل وأمريكا» الطرف الثالث الذي قد نسمّيه الرأي العام العـــالمي، أو الشرعيّة الدوليّة أو.. أو.. وهذا الطّرف للأسف تقلّص حتّى أصـــبح يمثّـــل فقط القوى الكبرى وبالتحديد الغربيّة، إذ أن إفريقيا غير معتبرة في اللعبـــة، ولا يهمّ رأيها، كما لا يهمّ رأي الدّول الآســـيوية الفقـــيرة.. ولا الـــدّول المعادية لأمريكا كالصّين وروسيا، وكوبا.. المقصود بالطّرف الثالـــث هـــو عادة دول أوربا الغربيّة.. والرأي العام الأمريكي الشعبي، لا الرّسمـــي.. وفي ظلّ خضوع المنظمات الدولية، ومنها الأمم المتحدة ومنظمـــات حقـــوق الإنسان لأمريكا أو لإسرائيل، يصبح صياحنا لتبرئة أنفسنا من تهمة الإرهاب واللاساميّة موجّهاً فقط إلى أوربا الغربية، وأوروبا تعرف جيّداً أنّ قضـــيّتنا عادلة لكنّها لا تستطيع أن تقدّم الكثير في مواجهة أمريكا وهيمنتها.. لذلك يبقى علينا أن نحوّل المعركة إلى واقع آخر..

إنّ اللوبيات الصهيونية حين تتهمنا بمعاداة السامية وتضطرّنا للردّ لتبرئة أنفسنا فهي في الحقيقة تُسَجِّلُ الكثير من النّقاط ضدّنا.. لأنّها تجرّدنـــا مـــن مبادرة الهجوم لاتّهامها..

إنّ شارون يجد من التسلية الممتعة له ولشعبه أن يقف على أشلاء أبنائنـــا الأبرياء وأظافره وأنيابه تقطر من دمهم ليتّهمنا باللاساميّة.. وآنذاك فهل الأولى

أن نجاريه في لعبته أم أنّ الواجب يتطلّب قلب قواعد اللعبة رأساً على عقب؟..

إنّ تحريك اللوبي العربي الإسلامي في فرنسا لرفع قضيّته في فرنسا ضدّ شارون كمجرم حرب مثلما حدث في بلجيكا، والضغط على النظام الفرنسي بمتابعة الملفّ يعدّ طريقة ردّ أولى من تبرئتنا أنْفُسَنَا.

ثمّ إنّ لنا هامشاً كبيراً لجعل الشعوب الأوروبية كلّها تَسْخر مِن سَاميّة إِسْرَائيل التي تقتل الأطفال.. إن هذا الهامش هو هامش تبنّي سامية «السموّ».. فما الذي يفيد شارون أن يكون ساميّاً في لغته وانتمائه وهو لا يعرف السموّ في شريعته وأخلاقه؟!!

هل ستصدقنا إسرائيل حين نقول أننا ساميون؟ هل ستنتهي إثارتهم ضدّنا واتهاماتهم لنا باللا ساميّة؟!! في حالة واحدة يكون ذلك.. متى؟

إذا تنازلنا عن حقوقنا ليس في فلسطين والجولان ومزارع شبعا فقط، بل على امتداد ما يتطلبه حلم «من الفرات إلى النيل» من أرضنا العربية..

وسؤال آخر؟

هل سنبقى في كلّ مرّة وطوال سنوات أو عقود الصِّراع، كلّما اتُّهمنا بمعاداة السّامية هرعنا إلى ما كتب حول الموضوع لنتأكد ونؤكّد أننا ساميون؟

إنّ مئات الملايين من المؤمنين بالصراع ضد إسرائيل وعدالته لم يقرؤوا يوماً إذا كان العرب ساميون فِعْلاً أم لا؟.. لكنّهم مؤمنون بوجوب رجوع الحقوق إلى أهلها..

لذلك فإنّ الذين تُثيرُهم هذه القضيّة هم عادة الذين يقفون في صف إسرائيل..

إنّ مصادرة كبيرة للموضوع تحدث حين تفتح هذه الملفات التشويشية في مصادر القرار الغربيّة.. إنّها تفتح لتضعف قوة التوجه والتركيز على المعركة المركزية، لذلك فإنّ فتح هذه الملفات في الدّول الغربية يستدعي ملفات مشابهة لها ضدّ إسرائيل في الدّول ذاتها..

إنّ إسرائيل تحرّك لوبيها في فرنسا ليضغط على الحكومة الفرنسية، وحين تجد هذه الحكومة نفسها تحت ضغط جهة واحدة مهما صغرت، وأمام صمت جهات أخرى مهما كبرت وكانت أقوى، فإنّها ستذعن للضّاغط ولو كان مئة.. لذلك لابدّ من إيجاد لوبي موازٍ لإحداث توازن في الضغط، وهذا مطلوب حتى في أمريكا وبريطانيا .

إن النفوذ الحقيقي هو نفوذ الشارع، فمن يستطيع أن يمتلك الشّارع يكون الأقوى.. لأنّ أمام الشارع في مثل هذه البلدان الديمقراطية يسقط نفوذ القوى النخبوية المالية والإعلامية، وحتى السلطويّة..

ثمّ إنّ تحريك الناحية القانونية الحقوقية يجب أن يأخذ شكلاً آخر، غير هذا الشّكل..

إنّ مشكلتنا في الكثير من الأحيان تكمن في كوننا ننظر إلى المعركة بعين واحدة..

إنّ صناعة اللوبيّات، سواء النخبوية المالية والإعلامية والسلطوية أو التحريضية للجماهير والمتحكمة في الشارع، يعدّ جزء هاماً من المعركة يجب أن يعطى حقّه من الاهتمام والتغطيّة بجميع أنواعها.

إنّ قاضياً واحداً استطاع أن يدخل بينوشيه في ازعاجات متواصلة، وإنّ أصابع عدّة تمالأت على تحريك ملفّ ميلوسوفيتيش انتهت بـه إلى محكمة لاهاي.. ثمّ إنّ بعض ضحايا جزائريين استطاعوا عبر تحريك ملفّ الجنرال خالد نزار أن يضطروه للهروب ليلاً من فرنسا خوفاً من الاعتقال والمحاكمة..

وإن برنامجاً تلفزيونياً واحداً بثّته هيئة الإذاعة البريطاني BBC وهو (المتّهم) استطاع أن يحدث في إسرائيل ما لم تُحدثه كتب وكيلومترات من أشرطة البرامج الاستهلاكية، إنّ مكان والدة الطفل محمّد الدرّة، ووالدة الطفلة ـ إيمان حجّو ليس في فلسطين، بل في دولة أوربية يتسنّى من خلالها رفع قضيّة ومتابعتها.. خاصة بعد الخدمة التي قدّمها الإعلام لهذين الحدثين..

إنّ إسرائيل لا تستطيع أن تقوم بمثل ذلك في المقابل، لأنّ الأدلّة تعوزها.. أمّا العرب فعندهم الكثير من الأدلة على إجرام عَدُوِّهم.. ولا ينقصهم سوى تحريك الملفّات والشّوارع في الأماكن المناسبة من العالم..

إنّ الإسرائيليين يتحدّثون اليوم عن حق كان لهم في فلسطين منذ أحقاب.. ليوهموا الرأي العام العالمي، وليشحنوا أجيالهم بأنّ هذا الذي قاموا ويقومون به ليس استعماراً بل استعادة مشروعة لحقّ قديم.. وفي سبيل ذلك يقتحمون كلّ أسوار قوانين المواطنة في دول العالم ويستعيدون كلّ الرعايا اليهود..؟

هل تستطيع دولة في العالم أن تقول لإسرائيل إنّ مطالبتها بهجرة مواطنيها يعتبر تدخلاً في الشؤون الداخلية، وتحريضاً لمواطنين عاشوا فيها منذ قرون على ترك وطنهم؟!!

وتعتبر القوانين الإسرائيلية عودة اليهودي حقّاً لا يجري عليه التقادم لأنّ عودته حقّ تاريخي وبإمكانه أن يستخدمه في أيّ وقت يشاء..[1]

في المقابل هناك صورة مغايرة تماماً..

فأمام إصرار اليهودي الذي يُمنّي نفسه بالعودة إلى حقّ فقده منذ عشرات القرون، تعمل دول عربيّة على القطع النهائي للاجئين والمشرّدين الفلسطينيين عن وطنهم فلسطين، عبر مؤامرة التّوطين..

لقد اشترت الولايات المتحدة الأمريكية من إسرائيل أرضاً في القدس لتقيم عليها سفارتها، «وقد تبيّن أنّ ٧٠% من هذه الأرض ملك للوقف الإسلامي، و٣٠% ملك لـ ٧٦ شخصاً فلسطينياً موزّعين على ١٩ عائلة، وعدد ورثتهم يبلغ المئات، وبعد العثور عليهم، تبيّن أن ٩٠ منهم يحملون الجنسية الأمريكية، و٤٣ الجنسية البريطانية، ويحمل الباقون جنسيات سويسرية وبلجيكية ونمساوية وفرنسية، وتبذل الآن جهود لحثّ هؤلاء الورثة على المطالبة بحقّهم بالأرض».[2]

فانظر إلى هؤلاء الذين يأتون بعد قرون محمّلين بمواعيد وأحلام لأرضهم القديمة، ثمّ انظر إلى أبناء الأرض الأصليين الذين أخرجوا منها منذ نصف يوم.. انظر إليهم.. وجهود تبذل لحثّهم على المطالبة بحقّهم في الأرض.. إنّ الذي يحدث الآن في الأردن مثلاً من إلغاء تمثيل منظمة التحرير الفلسطينية للاجئين الفلسطينيين فيه، ثمّ تخيير هؤلاء اللاجئين بين الإصرار

(١) انظر كتاب قانون العودة وقانون الجنسية الإسرائيليان ص ٤٣.

(٢) ص ١٧ من كتاب «اللاجئون وحق العودة بين المناورات التفاوضية ومقدمات النهوض الجماهيري» لرمزي رباح وعلي فيصل.

على حق العودة أو الاندماج في مشروع التوطين في الأردن لا يرتقي لأن يكون مواجهة مسؤولة وأمينة لمشروع إفراغ فلسطين من أهلها تمهيداً لتهويدها.

هل المطلوب من هؤلاء أيضاً أن لا ينتموا لأيّ منظمة أو نشاط فلسطيني؟!!

إنّ هذا السّؤال كان يجب أن يطرح على الحكومة الأردنية.. فهل المطلوب أو المفروض على كلّ فلسطيني تضطرّه الظروف إلى طلب الجنسية الأردنية أن يتبرّأ من قضيّته وأن يَنْساها كشرط لِدُخُوله أو بقائه في الأردن..؟!!

إنّ نقطة قوة إسرائيل تكمن في توسيعها نطاق الصّراع لتشمل جميع اليهود وأشياعهم وعملائهم في العالم، بينما عندنا نحن ليست المشكلة فقط في عدم قدرتنا على تجنيد العرب والمسلمين المتواجدين في دول الغرب باعتبارها مراكز ضغط لخدمة قضيّتنا، بل في قتلنا للقضيّة حتى في عواصمنا العربيّة، التي تمثّل الخندق المركزي للصّراع..

ومنذ مدّة كان أرنولد توينبي المفكّر الإنكليزي المعروف يقول: «إنّ المبدأ السياسي الإسرائيلي يقول بأنّ كلّ يهودي في العالم بوصفه يهودياً يجب أن يدين بالولاء لإسرائيل.. وإذا لم يكن راغباً في الوفاء بهذا الالتزام كاملاً بأن يصبح إسرائيلياً، فعليه أن يعمل من أجل مصالح إسرائيل، طالما ظلّ باقياً في الدياسبورا»..

إنّ عدم التكافؤ في «النفير» هو الذي سبّب رجحان الكفّة لصالح إسرائيل سواء في الخندق المركزي أو في خنادق الضغط في المدن الغربيّة.. ولقد عبّر القرآن الكريم عن هذه الأبجدية حين قال تعالى مخاطباً اليهود: {وجعلناكم أكثر نفيراً}..

إنّ القضيّة ليست قضيّة عدد، بل قضيّة من ينفر من هذا العدد..

إنّ الشّعب الفلسطيني يتعرّض اليوم لمحرقة فِعليّة.. لكننا غير قادرين على إتقان صناعة هولوكوست نُخرِجُ بها عدوّنا ونضغط بها عليه.. نقاضيه وقد نُدِينُه..

لذلك سيبقى القليلون الذين يتحرّكون منّا، أو حتى يرقصون رقصة الذبيح، إمّا إرهابيون وإمّا معادون للسّامية..